هل كان المتنبى متديناً ؟

أبو الطيب المتنبى أقوى شعراء العربية نبضات قلب ، وأبعدهم منزع فكر ، وأعمقهم حكمة ، ومن أصدقهم إفصاحاً عن خفايا النفس ، وأعرفهم بأسرارها ، فلا عجب إن كان بعد ذلك أبعدهم شهرة وأخلدهم أثراً . ولست أعرف شاعراً من شعراء العرب ظفر من إعجاب الخاصة والعامة بمثل ما ظفر به المتنبى ، وبرغم الزمن الطويل الذى مر على وفاته وتغير الأحوال وتبدل المعايير الأدبية وتباين أساليب الفهم واختلاف الذوق فإن شهرته لم تخمد ، ولا يزال اسمه سائراً على الألسنة وشعره مضرب الأمثال ومستودعاً من مستودعات الحكمة .

والمتنبى أنموذج صالح لتمثيل خصائص الشعر العربى ، ولا نزاع فى أن شاعراً واحداً بالغاً ما بلغ من القدرة والافتنان لا يكفى لتمثيل عبقرية شعب فى ظلالها المختلفة وشياتها المتلونة . وقد لا يكفى انقطاع شاعر ممتاز لتمثيل جانب اللهو والمجون أو جانب الزهد والورع أو جانب القوة والأمل أو جانب اليأس والألم . وأرجح أن المتنبى أقرب شعراء العربية إلى التمثيل العام لعبقرية الشعر العربى ، ولذلك انعقد عليه الإجماع وعمرت بذكره المجالس وحفلت بأخباره السير وبقى شعره على الزمن .

والمتنبى لايستثير إعجابنا ولا يهفو بألبابنا من ناحية إثارة الخيال واستفزاز العاطفة وحدها وإنما لأنه يقدم لنا مادة ثمينة للتفكير والتأمل ويعرض علينا نظرات فى الحياة صائبة وخواطر عن الإنسان جديرة بالنظر والاعتبار . وواضح

أن أسلوب المتنبي الذى يغلب عليه تحرى الضخامة والقوة لا يصلح للتعبير عن المشاعر الرقيقة وهمسات الروح الداخلية وضروب الجمال الخفى وألوانه الصامتة ونغماته الخافتة ولكنه يطيل التفكير فى الحياة ويستخلص الحكمة من التجارب ويعطيك فى شعره عصارة صالحة ليس فيها حلاوة ولا نداوة وليس لها موسيقية صافية النغم عذبة الرنين ، فكل كلمة عليها طابع القوة وسمة العنف . وهو لا يدانى البحترى فى جمال فنه ولطافة تصوره ولا يبز أبا تمام فى أستاذية الصياغة وفحولة الصنعة ولا يتدفق تدفق المعرى ، ولا يشب وثبات الشريف ، ولكن عقله المكين كالثغر الكبير المتسع تحمل إليه السفائن حمولات الأفكار من شتى النواحى وهو يستطيع أن يهضمها ويطبعها بطابعه .

وعندما قال الناقد الإنجليزى المشهور «ماثيو أرنولد» : «إن الشعر هو نقد الحياة وأحسن الشعر هو الذى يقدم لنا أكمل تفسير للحياة الإنسانية» أثار عليه ذلك زوبعة من النقد ، ولكنى أرى أن الشعر لكى يكون من الطراز الأسمى ، لا يكفى أن يرفه عن النفس أو أن يكون حافلاً بالموسيقية مترعاً بالأخيلة . بل يلزم أن يعيننا على تفسير مشكلاتنا الإنسانية ومسائلنا الأخلاقية . ولست أقصد بالأخلاق هنا المعنى الضيق المحدود ، وإنما أقصد بها قوة الشعر على أن يرتفع بنا فوق سفاسف الحياة وصغائرها ، ويمتاز فى هذه الصفة المتنبي وأبو العلاء . فهما ملكان يسيطر كل منهما على عالم شاسع من عوالم الروح ، وكلاهما منفرد حزين فى النهاية ولكن الأول محارب مطبوع على المناجزة .

تعود أن يغبر فى السرايا ويدخل من قتام فى قتام

أما الثانى فيائس مستسلم . والمتنبي أقرب إلى مزاج الرجل السليم ، ونظرته فى الحياة أساسها الخبرة ، فهى بريئة من ثرثرة العلماء المكبين على كتبهم ، ومنزهة عن أوهام رجال الفكر البعيدين عن ميادين العمل ، وحياته أشبه برواية لها

مواقفها المشهورة ، وقد تكفل ديوانه بوصف أحوالها المتقلبة ، وأطوارها المتتابعة من نشأته الغامضة وما مني به من الفشل الحاطم في مستهل أمره . ثم اتصاله بسيف الدولة وانصرافه عنه إلى مصر ، وقفوله منها مغاضباً لكافور ، إلى مصرعه الأخير .

ولكن هناك جانباً هاماً من جوانب الحياة العربية أهمل المتنبي التعبير عنه والإلمام به ، ولم يكن له فيه موهبة تذكر وهو الجانب الديني في الحياة العربية . ولو في الشعر العربي أجمعه ولم يبق سوى ديوان المتنبي لما استطعنا أن نعلم منه شيئاً يؤبه له عن العاطفة الدينية عند العرب . ولا نكران في أن أكثر شعراء العرب لم يعنوا بإثبات خواطرهم الدينية إلا في الندرة والفرط ، ووقفوا من الدين موقفاً محايداً ، ولكن الذي يسترعي النظر في شعر المتنبي هو أن فيه إشارات كثيرة تختلف وضوحاً وخفاء تنم على وهن العقيدة وضعف الإيمان وغلبة الآداب الجاهلية في نفسه على الآداب الإسلامية ، وقد لمح ذلك القدماء من النقاد فأشار إليه الجرجاني في الوساطة والثعالبي في اليتيمة وتناوله من الكتاب المحدثين الأستاذ العقاد والأستاذ شفيق جبري والأستاذ محمد كمال حلمي ، ومن عجيب الاتفاق أن هذه الصفة يشترك فيها المتنبي مع شكسبير . . وقد كانت العاطفة الدينية عند المتنبي ضعيفة في جميع أدوار حياته ، ففي ريق شبابه واكتمال قوته قال :

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشعرة في مفرق

وفي هذه الأبيات يمتزج الطموح المتطرف وفرط الثقة بالنفس باحتقار الخليقة بأسرها وهي تروى عن شعور رجل أجال بصره فلم ير شيئاً جديراً بإجلاله

خليقاً بآماله وطموحات نفسه ، وفى مدحه لبدر بن عمار يقول :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنى

وهو هنا يرتفع بممدوحه إلى رتبة الألوهية ولو كان لها مكانة من نفسه لما هبط بها هذا الهبوط ، ويقول فيه أيضاً .

لو كان علمك بالإله مقسماً فى الناس ما بعث الإله رسولا

لوكان لفظك فيهم ما أنزل الفرقا ن والتـــوراة والإنجيـــلا

وفيه فضلاً عن المبالغة إقحام للكتب المقدسة فى مجال كان يجمل به أن ينزهها عنه ، ويقول فى الغزل :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه حلاوة التوحيد

ولا يتورع عن تشبيه نفسه بالأنبياء فى قوله :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

ويتناول معجزات الأنبياء بالتهوين والانتقاص فيقول :

لو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

وفى مدحه لأحد العلويين لا يستكثر أن يقول :

وأبهر آيات التهـــامى أنه أبوك وأجدى مالكم من مناسب

ويخاطر فى مدحه لسيف الدولة بمثل هذا القسم :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

وفى مدحه لابن العميد- وكان فى نظر المتنبى «فلسفياً رأيه فارسية أعياده»- يقول :

لنا مذهب العباد فى ترك غيره وإتيانه نبغى الرغائب بالزهد

رجونا الذى يرجون فى كل جنة بأرجان حتى ما يئسنا من الخلد

فأصحاب العقيدة فى رأيه هم العباد وهو يختلف عنهم بطبيعة الحال ولا يشبههم إلا فى قصده لابن العميد كما يقصدون هم الجنة ، وهى مشابهة لا تقر بها عين الدين ، وقد سخر من آدم سخرية رقيقة مستساغة على خلاف عادته فى التهكم المر والسخرية القارصة وأجراها على لسان حصانه :

يقول بشعب بوان حصانى أعن هذا يسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

وفى القصيدة التى نظمها بعد شفائه من الحمى بمصر يقول :

تمتع من رقاد أو سهاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

ويقف من مسألة خلود الروح موقف الشك ، وهى ركن من أقوى أركان العقيدة الدينية :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف فى الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

ولم يكن له من وثاقة الإيمان ومتانة العقيدة ما يمكنه من الاطمئنان إلى رأى والقطع بأحد المذهبين ، على أنه قد صرح بالرأى المادى تصريحاً لا يحتمل تأويلاً ولا تمحلاً فى قوله :

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجساد من تربه

ومن شك فى الخلود فليس عجيباً أن تطالعه صور الفناء من كل ناحية ، وفكرة الفناء ماثلة على الدوام له فهو يكثر من ترديدها كقوله :

أبنى أبينا نحن أهل منازل أبداً غراب البين فيها ينعق

ولهذه الفكرة نتيجتان مختلفتان : فهى قد تغرى الإنسان بالزهادة وإطراح اللذة ، وقد تسوقه على العكس إلى الانغماس فى الملذات حتى يستوفى نصيبه من المتعة لأنه ما دامت الحياة فانية فلماذا لا نأخذ قسطنا من اللذة ؟ وعلى أى أساس نقيم قواعد الأخلاق ؟ وفى ظل هذه الفكرة قال المتنبى :

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ففترق جاران دارهما العمر

وقال :

أنعم ولذ فللأمور أواخر أبداً إذا كانت لهن أوائل

وفى سبيل تحقيق أطماعه وبلوغ مآربه لا يرى بأساً فى أن يستعين بمدلول قوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستبيح دم الحجاج فى الحرم

وفى هجائه لكافور يقول :

ألا فتى يورد الهندى هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم

فإنه حجة يؤذى القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

ومعروف عن المتنبى أنه لم يكن يصلى ولا يصوم ولا يقرأ القرآن ، ومن كان لا يرى فى الوجود شيئاً مقدساً فليس عجيباً أن يسىء الظن بالدهر والناس ويغالى فى ذم الدنيا فهى فى نظره أخون من مومس وأخدع من كفة الحابل . أما أهل عصره فهم فى رأيه كما وصفهم :

أذم إلى هذا الزمان أهليه فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وأكرمهم كنب وأبصرهم عم وأسهدهم فهد وأشجعهم قرد

وهو لا يؤمن بالصداقة فليس للإنسان صديق سوى نفسه :

صديقك أنت لا من قلت خلى وإن كثر التجمل والكلام

وقد وردت فى مدائحه لسيف الدولة بعض إشارات إلى الدين تقليدية اقتضاها سياق الكلام ولكنها ليست من فيض القلب ولا من نتاج العقيدة مثل قوله .

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم

ولقد كان عصر المتنبى عصر شك واضطراب استحرّ فيه النزاع بين الطوائف والمذاهب وضعفت فيه العقيدة وساور الشك النفوس وطغى على العقائد ، ولكنى أرى أن ضعف عقيدة المتنبى يرجع فى الأكثر إلى مزاجه وشخصيته . فقد كان بطبيعته رجلاً واقعياً مسرفاً فى واقعيته لا يعرف مداعبة الأحلام ولا التعلل بالآمال ولا تحلق أوهامه فى السحاب ولا تترامى أفكاره إلى عالم مجهول خلف الزمان والمكان ولا يجرى فكره وراء الألفاظ البراقة والصور الخلابة بل يجب أن يستمسك بالأرض يوسعها سيراً وتوثباً وحفراً وتنقيباً ، وليس له وراءها مطمع . وكان ينفذ إلى الأفكار الجليلة من خلال هذه الواقعية المحضة ، وتلك سمة من سمات كبار الشعراء والفنانين ، فالفنان الصادق يصل إلى المثالى عن طريق دنيا الحواس لا عن طريق الصور المجردة . وعبقريته المصورة تجلو لنا الحقائق أنصع لوناً وأشد فى النفوس وقعاً وهذا هو السر فى أن حكمة المتنبى المستقطرة من الحياة وتجاربها كالذهب النقى لا تذهب لمعته ولا يغيض رونقه .

وشخصية المتنبى بعيدة عن روح الدين لأن الدين فى أوسع معانيه هو الاعتقاد بقوة علوية فوقنا ولكنها تعمل من أجلنا ، والرجل المتدين يلوذ بهذا الاعتقاد ويتقى به قوارع الخطوب وعواصف الحياة ، وهو فى نظره حقيقة الحقائق وسر الأسرار ومنبع الأمل وأساس الأخلاق ، ويرى فى كل مظهر من مظاهر الكون آثاراً له ظاهرة وشواهد عليه ناطقة . وقد كان أبو الطيب رجلاً كثير الأعتداد بنفسه شديد الاعتماد عليها لا يعرف التواضع ، وكان يحس أن فيه

من قوة الأسر وصلابة المعجم ما يغنيه عن الاستناد إلى أية قوة خارجية ، انظر مثلاً إلى قوله :

إن نيوب الزمان تعرفني أنا الذى طال عجمها عودى
وفيّ ما قارع الخطوب وما آنسنى بالمصائب السود

والحياة فى نظر المتنبى ليست معبداً مقدساً . ولا صومعة ناسك وإنما هى مجال كفاح لا رحمة فيه ولا هدنة . وهو حكيم مجرب ولكنه ليس قديساً ، ولقد واجه شرور الحياة ومناكر العيش بلا أمل ولا يقين ، وعرف ضعف الإنسان وجهالته وشقاءه ولكنه لم يستطع أن يعتصر هذه الظواهر المؤلمة ليخرج لنا ما فيها من الخير . ولم يذهب بنا إلى ما وراءها من نظام ولم تستطع عبقريته أن تنير دواجى الظلام المخيم حول هذه المشكلات . وبرغم توقد عاطفته وقوة نفسه لم يستطع أن يبعث فينا شيئاً من الثقة بالنفس الإنسانية والأمل فى مصيرها ، فلسفته حزينة مكتئبة وحياته قلقة مضطربة وخاتمته مأساة تستثير الأسف وشخصيته تثير الإعجاب والاحترام أكثر مما تثير الحب والعطف . وخلوه من العاطفة الدينية لا يقدح فى شاعريته لأنه لا يشترط أن يكون الفن مظهراً للدين وإنما الفن والدين والأخلاق هى وسائل الوصول إلى عالم القيم الخالدة . وقد آثر المتنبى أن يسلك طريق الفن ، ولئن كان نصيبه من الدين قليلاً فقد عظم نصيبه من الفن .